اثبات الروح بالمباحث النفسية

تعليلات المنكرين للحوادث الروحية

(٨)

لما ذاع امر الحوادث النفسية وتناقل الناس تجاربها حاول بعض الناقدين ممن يفسرون مساتير الكون وهم جلوس على اسرتهم او ممن يسرعون الى البت في كل معضلة ولم يبلغوا الغاية من علمها ان يعللوا بعض ظواهرها بعلل . وقد نظرنا في التعليلات التي تعلل بها الحوادث النفسية فوجدناها تنحصر في ست نظريات وهي:

(١) هذه الحوادث من الشعوذة لا اكثر ولا اقل فجميع الوسطاء خادعون وكل المجربين مخدوعون

(٢) هذه الظواهر خيالات تتراءى للمجربين وهم تحت تأثير الاستهواء الواقع عليهم من الوسيط فيرون ما لا حقيقة لهُ في الخارج ويخبرون عنهُ كأنهُ من المشاهدات الواقعية

(٣) هذه الحوادث من فعل روح الوسيط نفسهِ لا روح اجنبية عنهُ

(٤) هذه الحوادث عمل الروح العامة التي تتكون من مجموع ارواح جميع الحاضرين

(٥) هذه الحوادث نتيجة عمل ارواح مجردة موجودة في الكون ولكنها ليست بارواح الموتى

(٦) هذه الحوادث فتنة من الشياطين لتضليل عباد الله المؤمنين

فلنلق على كل من هذه التعليلات نظرة انتقادية مستندين على التجارب العلمية التي عملت لدحضها واثبات نقصها فنقول :

نظرة على التعليل بالتدليس

قال الاستاذ الكبير وليم كروكس في كتابهِ القوى النفسية صفحة ١٧٤ :

« قالوا ان كل هذه الحوادث نتيجة التدليسات والتدبيرات الآلية المتقنة او الشعوذة وان كل الوسطاء مزورون وجميع المجربين غفل مخدوعون ...

« ولقد رأيت عدة تدليسات كان بعضها متقناً جداً وبعضها من الغلاظة

بحيث لا يتفق ان يقع فيها واحد ممن شهدوا الحوادث الحقة لهذا العلم . فمن الباحثين من اذا صادفهُ تدليس من هذا القبيل يكره موالاة البحث ويجد نفسهُ مدفوعاً الى اطلاق العنان لآرائهِ سواء في مجالسهِ الخاصة او بلسان الصحف فيهم بالكارهِ جميع الوسيطين . فيكتب للجرائد شارحاً ما رآهُ من التدليس وقد تأخذهُ الشفقة من رؤية هذا المنظر المحزن وهو امعان الرجال المعدودين من الاذكياء في الانخداع بالاحابيل الى كشفها هو من اول وهلة ....

« فلا يجوز ان ننسى ان اي تعليل من التعليلات يجب ان تتوفر فيهِ جميع الشروط لاجل ان يكون ذا قيمة حقيقية . فليس من العقل ان يقول شخص لم ير الاَّ بعض المشاهدات التافهة « اظن ان كل هذا من التدليس » ولا ان يقول: « قد رأيت كيف تدبر هذه الادوار من الغش » ...

« وبما اني متحقق من صحة هذه الحوادث فمن الجبن الادبي ان ارفض شهادتي لها بحجة ان كتاباتي قد استهزأ بها المنتقدون وغيرهم ممن لا يعلمون شيئاً في هذا الشأن ولا يستطيعون بما علق بهم من الاوهام ان يحكموا عليها بانفسهم . اما انا فسأسرد بغاية الصراحة ما رأيتهُ بعيني وحققتهُ بالتجارب المتكررة »

وقال العلامة كاميل فلامريون في كتابهِ القوى الطبيعية المجهولة صحيفة ٥٤١ :

« من السهل جداً ان يقف الانسان موقف المنكر انكاراً مطلقاً حيال المشاهدات التي هي غرضنا من هذا الكتاب

ثم سرد حوادث روحية كثيرة وقال : « كل هذه الحوادث بالنسبة لثلاثة ارباع سكان الكرة الارضية تعتبر هذياناً او شعوذة فلا يصح ان يبحث عن علتها في نظرهم . ولديهم ان الرأي المعقول الوحيد هو ان كل هؤلاء الوسطاء من الذين اتخذوا الوساطة صناعة او لم يتخذوها كذلك مدلسون مزورون وكل المجربين مغفل مخدوعون

« وقد لا يكتفي الواحد من هؤلاء القضاة الأعلين بالغمز بعينيهِ او بالتبسم وهو على اريكة اختصاصهِ الملكي ولكنهُ قد يتفضل فيحضر احدى التجارب فاذا اتفق كما يحدث كثيراً عدم حصولهِ على شيء يخضع لارادتهِ يبرح المجرب المبجل المكان وهو معتقد تمام الاعتقاد بانهُ لنفاذ بصيرتهِ الفائق قد اكتشف

الحيلة ومنع ظهور اي شيء بادراكه الواسع ونظره البعيد . فيسارع الى الكتابة للجرائد مفسراً التدليس وباكياً بادمع التمساح تأثراً من ذلك المنظر المحزن وهو انخداع رجال معدودين من الاذكياء بتدليسات اكتشفها هو من اول وهلة

« هذا التعليل الاولي الساذج قد عرضناهُ كثيراً في هذا الكتاب وجادلنا فيهِ ودحضناهُ وقد صار قرائي يعتبرونهُ فيما ارجو محكوماً عليهِ حكماً تامًّا مطلقاً نهائيًّا ومطروحاً خارج دائرة البحث »

هـذا قول رجلين من اكبر رجال العصر الاخير في نفس التدليس وامامنا مئات من هذه الاقوال فلنكتف بهما ولننظر الى ما علقهُ المقتطف على بعض ما قلناهُ في المقال السابق

ذكر المقتطف عن الاستاذ نيوكم الفلكي ما جرى سنة ١٨٥٨ اي قبل ٦٢ سنة من تكوّن لجنة من ثلاثة اساتذة في نُزل بوستن لبحث حوادث الاسبرتسم فلم يروا ما يستحق الذكر . وان الاستاذ نيوكم نفسهُ جرب على فتاة اسمها لولو هرست فأتت بالمدهشات ولكنها لم تدع انها فعلت شيئاً خارقاً للعادة بل اظهرت كيف فعلت ما فعلتهُ . وان الجرائد الامريكية ذكرت النرائب عن تلك الفتاة

لتكن الجرائد الامريكية على تلك الصفة بل ليكن الامريكان كلهم مخدوعين بالاعيب المشعوذين فلسنا والحمد لله نعتمد عليهم بل على مقررات الجمعيات العلمية الاوربية ومؤلفات الباحثين الاوربيين وعلى الاخص منهم الانجليز المشهورين بشدة التدقيق والتمحيص والاعتماد على المشاهد المحسوس وعدم التسرع في اصدار الاحكام الطائشة

وبعد فان الاستاذ نيوكم الامريكي لم يخرج عن كونهِ احد المنكرين لهـذه المباحث وقد بنى انكارهُ على تجارب سلبية معدودة بل بنى حكمهُ الشخصي فيها على تجربة واحدة وقع بها في اغاليط مدلـة عمرها خمس عشرة سنة فتنطبق عليهِ اقوال الاستاذين وليم كروكس وكاميل فلاريون التي قدمناها . فان البروفسور نيوكم في تسرعهِ وضجرهِ من الاعضاء الثلاثين الذين ندبتهم الجمعية العلمية الانجليزية رسميًّا لبحث ظواهر الاسبرتسم فأمعنوا في التجارب ثمانية عشر شهراً وليس معهم وسيط اجنبي وبالغوا في الصبر وبذلوا ما هو معروف عن علماء الانجليز من الثبات والتؤدة وبعد النظر ثم كتبوا تقريرهم المشهور

الذي وقع في اكثر من خمس مئة صفحة وترجم الى جميع اللغات الحية . وقد جاء فيه بالصفحة ٩ وما بعدها من الترجمة الفرنسية ما يأتي :

« قد عقدت هذه اللجنة من يوم تألفها في ١٦ فبراير سنة ١٨٦٦ اربعين اجتماعاً بقصد عمل التجارب والامتحانات المدققة

« كل هذه الاجتماعات عقدت في البيوت الخاصة للاعضاء لاجل توفي كل احتمال في اعداد آلات لاحداث هذه الظواهر او أية وسيلة من اي نوع كان

« ولقد كانت اثاثات الغرف التي عقدت فيها الاجتماعات في كل حال هي اثاثاتها العادية

« وقد كانت الاخونة (الترابيزات) التي استخدمت دائماً للتجارب هي اخونة للطعام ثقيلة تحتاج لقوة عظيمة اذا اريد تحريكها. وقد كان طول اصغرها خمس اقدام وتسع بوصات وعرضها اربع اقدام . وكان طول اكبرها تسع اقدام وثلاث بوصات وعرضها اربع اقدام ونصف القدم وكان ثقلها مناسباً لحجمها

« وقد كنا نعمد الى تفتيش هذه الاخونة وجميع الاثاثات تفتيشاً مكرراً قبل عمل التجارب لنحصل على الثقة التامة بعدم وجود اي آلة او جهاز يمكن بواسطته ان تحدث الاصوات والحركات التي ستذكر بعد

« وقد عملنا تجاربنا في ضوء الغاز ما عدا عدداً قليلاً منها اقتضى فيها شأنه الخاص ان نعمله في الظلام في دقائق معدودة

« قد تحاشت لجنتكم ان تستخدم الوسطاء المشتغلين بهذه الوظيفة في الخارج او الذين يأخذون اجراً على عملهم هذا. فكان واسطتنا الوحيد أحد اعضاء اللجنة شخص جليل الاعتبار في الهيئة الاجتماعية وحاصل على سعة الثراء المطلقة وليس له من غرض مالي يرمي اليه ولا اي مصلحة في غش اللجنة

« وقد عقدت لجنتكم عدة اجتماعات بدون اي وسيط لاجل محاولة الحصول على نتائج مشابهة للتي تحصلت عليها بحضوره فلم تحصل بعد كل جهد على نتائج مشابهة تماماً للتي تحصل مع وجوده

« كل تجربة من التجارب التي عملناها مما امكن لمجموع عقولنا ان تتخيله عملت بصبر وثبات . وقد دارت هذه التجارب في احوال كثيرة الاختلاف

واستخدمنا لها كل المهارة الممكنة لاجل ابتكار وسائل تسمح لنا بتحقيق مشاهداتنا وابعاد كل احتمال لغش او توهم »

« وقد اكتفت اللجنة في تقريرها بذكر المشاهدات التي كانت مدركة بالحواس وحقيقتها مستندة الى الدليل القاطع

« وقد بدأ نحو اربعة اخماس اللجنة التجارب وهم في اشد درجات الانكار لصحة هذه الظواهر ومقتنعون اشد اقتناع بانها كانت اما نتيجة التدليس او التوهم أو انها حادثة بحركة غير ارادية للعضلات . ولم يتنازل هؤلاء الاعضاء المنكرون اشد الانكار عن فروضهم السابقة الاّ بعد ظهورها بوضوح لا تمكن مقاومتهُ وفي شروط تنفي كل فرض من الفروض السابقة وبعد تجارب وامتحانات مدققة ومكررة فاقتنعوا رغماً منهم بأن هذه المشاهدات التي حدثت في خلال هذا البحث الطويل هي مشاهدات حقة لا غبار عليها

« وقد كانت نتيجة تجاربهم التي تتبعوها مدة طويلة وقادوها بعناية واهتمام وجشوها جميع اشكال الامتحانات تقرير الاحوال الآتية :

(اولاً) انهُ بوجود شخص او اشخاص ذوي استعداد جسماني او عقلي خاص تتولد قوة كافية لتحريك اشياء ثقيلة بدون استخدام اي مجهود عضلي وبدون مس ولا اتصال مادي من اي نوع كان بين تلك الاشياء وبين جسد اي شخص من الحاضرين

(ثانياً) هذه القوة تستطيع ان تحدث اصواتاً في بعض الاشياء الجامدة بحيث يسمعها جميع الحاضرين بوضوح تام ولا يكون بين تلك الاشياء وبين احد الحاضرين اي اتصال وقد ثبت ان هذه الاصوات صادرة في هذه الاشياء عن ذبذبة تتضح عند اللمس تمام الاتضاح

«(ثالثاً) كثيراً ما تكون تلك القوة مقودة بعقل » انتهى

نقول ان هذه الزلزلة والثبات والدؤوب وراء الغاية الجليلة من ذلك السرح المعيب والتحدي السلبي الذي ظهر بهما الاستاذ نيوكم ؟ فهل كان يتخيل أفاسز وصاحباه ان يكشفوا عالم الروح بجلوسهم مرة او مرتين امام وسيط لا يهمهُ الاّ قبض الاجرة ؟ وهل كان يرجو الاستاذ نيوكم ان يتصل بالعالم العلوي بجلوسهِ مرة واحدة امام مشعوذة وهو بين حشد من المتلهين ولم يتخذ بعض ما يتخذه

رجال العلم في انجلترا وفرنسا والمانيا من التجربات التجريبية كربط الوسيط وحبسه في قفص حديدي وتسميره بالارض وايصال تيار كهربائي الى جسده ليسجل عليه كل حركة وسكنة لكيلا يقع فيما وقع فيه من الانخداع الشائن حتى كانت المشعوذة هي التي اخبرته بانها لم تفعل ما فعلته بغير اساليب الشعوذة ؟

انا اعجب لماذا يعول خصوم هذه المباحث على امثال هؤلاء المتسرعين ويمتنعون عن قراءة تقرير اللجنة الرسمية التي ندبت لدرس هذه الحوادث في البلاد الانجليزية وهو يعتبر حكم الانجليزي المشهور له بالتمحيص والتدقيق ؟

ان تقريراً يكون من الموقعين عليه تندل ولورد افبري ووروسل ولاس ووليم كروكس من اقطاب العلم الانجليزي بل من زعماء المذاهب العلمية الحاضرة لجدير بان يحل في الدرجة العليا من الاعتبار في نظر المتكلمين في هذا الموضوع الخطير الذي حول آراء العلماء من المادية البحتة الى الروحانية الصرفة في هذا الجيل

هل يعقل ان نعتد بتجربة اغاسز السلبية الوحيدة وبوقوع نيوكم[1] في يد مشعوذة ماهرة فنعتبر فشلهم حجة دامغة ونرمي عرض الحائط باقوال الالوف من رجال العلم الذين جربوا هذه المباحث مجتمعين ومنفردين في مدى اكثر من سبعين سنة ؟

ألم يكن في الثلاثين اخصائيًا الذين ندبهم المجمع العلمي البريطاني لفحص الاسبرتسم واحد في مثل تبصر اغاسز او نيوكم فيهدي تلك اللجنة الى طريقة التدليس ؟

ان جمعية المباحث النفسية التي تألفت في لوندرة منذ سنة ١٨٨٢ لا تزال قائمة وقد تولى رئاستها لسنة ١٩١٩ اللورد ريليه Rayleigh وهو اعلم علماء انجلترا بالطبيعة تاهيك انهُ يشغل في الجمعية الملكية محل العالم الاشهر تندل. وقد جمعت هذه الجمعية من التجارب ما يقع في اكثر من اربعين مجلداً . فهل يعتز ان هذه الجمعية المؤلفة من غطارفة العلم الانجليزي تتسكع في الغرور والوهم والانخداع نحو اربعين سنة ؟ وهل يليق ان نرمي بتجاربها الايجابية عرض الحائط ونأخذ بقول اغاسز او نيوكم ممن لم يحاولوا هذا الموضوع الخطير الا مرة واحدة ؟

هل هذا الاسلوب السلبي الانكاري مما يرقي العلوم او يشجع الباحثين على موالاة التنقيب عن اسرار الكون ؟

(١) (المقتطف) انما استشهدنا بالاستاذ نيوكم لدلالته على عدم تدقيق الجرائد الاميركية . اما رأيه في السبرتزم فيرجع فيه الى مقالته الاستهلالية وقد كان اول رئيس لجمعية المباحث النفسية الاميركية

لو كان دحض المستكشفات العلمية يتأتى بنقل آراء الخصوم المتسرعين في احكامهم لما حيي مذهب جديد في العالم ولا ثبت رأي حديث فيه

ولو كانت الحقائق الجديدة تموت باحكام الخصوم المتسرعين لباد استكشاف الاوكسجين بواسطة لافوازييه لقيام علماء ضده اذ ذاك بحجة ان العناصر الاربعة لا تقبل التحليل . ولذهب استكشاف هرفي لدورة الدم ادراج الرياح لان جامعة الطب هزئت به وسلقته بلسان حاد . ولتعثر الاستصباح بالغاز لان العلماء كانوا يضحكون متى ذكروا امكان وجود مصباح بلا فتيل ولما مُدت الخطوط الحديدية وجرت عليها الآلة البخارية لان الرياضي الاشهر اراغو اثبت بالادلة الرياضية سنة ١٨٣٨ امام مجلس النواب الفرنسي ان هذا المشروع مستحيل . ولما تحقق عمل الاسلاك البحرية التلغرافية لان العلامة نابيه قال عنها في المجمع العلمي الفرنسي سنة ١٨٥٣ : « ان نظرية التيارات الكهربائية تستطيع ان تعطينا ادلة غير قابلة للنقض (تأمل) عن استحالة مثل هذا النقل للمخابرات » ولما كنا صدقنا بوجود الانسان الحفري لان العلامة الجيولوجي الكبير (ايلي دو بومون) السكرتير الدائم للمجمع العلمي الفرنسي ظل طول حياته ينكر وجوده . ولكنا رفضنا الاستفادة من السكترسكوب لان العلامة اجوست كونت قال اننا لا نستطيع ابداً وبأية وسيلة من الوسائل ان ندرس التركيب الكيماوي للكواكب . ولحرمنا من القوة الكهربائية في مخاطباتنا ومعاملنا وبيوتنا لان علماء الطبيعة المعاصرين لمستكشفها جالفاني سخروا منه وكذبوه ونبزوه بلقب مرقص الضفادع

انا لو اردنا استقصاء اقوال خصوم كل بحث جديد للزمنا ان نصنع في ذلك كتاباً . فليس طريق الوصول الى الحقائق وخصوصاً الكبرى منها ان نقف مع اقوال المنكرين الجامدين من غير المجربين او من المجربين الذين فشلوا في تجربة واحدة او عدة تجارب في سويعات معدودة ولكن طريقها درس ادلة المثبتين وزنها بميزان النقد الصحيح

هذا هو الذي نعمله في كتابتنا هذا البحث وهو الطريق الذي سلكه كل الباحثين في جميع العصور . وبهذا الاسلوب وحده تقررت الاستكشافات الجديدة وزادت بها مادة العلم

ان التنويم المغنطيسي الذي صبح اليوم جزءاً من العلوم الرسمية وهي مستكشفة مسمر بالشعوذة ونبز بكل الالقاب المحقرة . فلو كان اخذ المجربون المقاريم بكلام دولاء الخصوم لكنا حرمنا اليوم من اعظم استكشاف ظهر في العلوم النفسية

والاسبرتسم مضى على جهاده اليوم اكثر من سبعين سنة وقد وصل الى ما وصل اليه من احترام الوف من العلماء وملايين من النهماء في سائر اصقاع المعمور رغماً عن جميع المعارضين حتى صارت لهُ مجامع علمية لا تقل جلالاً عن المجامع الرسمية

وقد ذكرت مجلة التاريخ السنوي للمباحث النفسية التي يصدرها العلامة الكبير شارل ريشيه المعضو بالمجمع العلمي الفرنسي بجزئها المطبوع في سبتمبر الماضي انهُ قد تألف في فرنسا مجمع علمي جديد لتهيئة الحوادث النفسية للدخول الى العلم الرسمي مؤلفاً من الاستاذ الدكتور جيليه المدرس بجامعة السوربون وشارل ريشيه المدرس بجامعة الطب الباريزية والدكتور كالمت المفتش العام لصحة باريز . وجبريل دولان المهندس والاستاذ كاميل فلامريون والكونت ا . دوغرامون من المجمع العلمي الفرنسي وجرل روش احد وزراء فرنسا سابقاً والعضو بمجلس النواب حالاً والاستاذ سانتو ليكيرو احد وزراء ايطاليا ورئيس اللجنة الدولية الصحية للعلماء والاستاذ تيسييه المدرس بجامعة ليون والمسيو بارتامي سرتير المجمع الفرنسي المشهور . فهل يجتمع دولاء القادة المشاهير من العلماء والاطباء والسياسيين لتهيئة الاضاليل للدخول الى العلم الرسمي ؟ وهل يعقل ان يتنزل امثالهم للاشتغال بالاكاذيب المشعوذين مما ثبت لاغاسز بتجربة سنية ونيوركم باختباره لطلبة مشعوذة انها خرافات لا تستحق غير الاحتقار ؟

وجاء في المجلة العلمية والحقيقية للاسبرتزم الصادرة في شهر سبتمبر الماضي بصفحة ٢٠٠ ان المجمع العلمي الفرنسي (الاكاديمي فرنسيز) منح المسيو ل . شفروي جائزة (فاني بدن) لتأليفهِ كتابهُ الذي عنوانهُ (الانسان لا يموت) وهو اول كتاب روحي حصل على هذه الجائزة من مجمع كان قبل سنوات يهزأ بهذه المباحث ويعدها من الاخرافات العقلية . فهل يهب مثل هذا المجمع جوائزه لنشر الاضاليل وتأييد حزعبلات المخادعين والمخدوعين ؟ ؟ ؟

ان دولة الاسبرتسم قد تأيدت بحيث لم يعد في وسع احد ان يعد عن سبيلها او يقف حائلاً دون انتشارها بعد ما اكتسبت الى صفها الالوف من رجال العلم والملايين من اصحاب الذكاء والفهم وخصوصاً بعد ما اجتازت كل عقبة وضعت في سبيلها وثبتت على كل تمحيص واختبار وتجربة سرّيت عليها . فاي وهم يقاوم كل هذه التجارب والمشاهدات واي شعوذة تستهوي عقول اعتى المجربين من الماديين في مدى اكثر من سبعين سنة ؟

هل عهد في تاريخ البشر ان شعوذة مهما بلغت من الدقة ينخدع بها ثلاثون عالماً نزلوا خصيصاً لبحثها فيجمعون على الشهادة بصحتها ؟ وهل عهد في تاريخ البشر ان الملايين من افراده الاذكياء يتألبون على درس مسألة محسوسة فيلعب بعقولهم حفنة من المحتالين والدجالين وينتهي الامر بان يصدروا لنشرها نحو ثلاث مئة مجلة ويؤسسوا لها المجامع العلمية ويتولاها اقطاب العلم الرسمي في مثل الامم الانجليزية والفرنسية والالمانية وغيرها ؟

وهل يعقل بعد هذا كله ان تستمر هذه الحركة وتزيد في هذا العصر عصر الشكوك والالحاد وفي مثل القارتين المتمدنتين حيث دولة العلم قائمة وموازين النقد صارمة ؟

اللهم لا

ويحسن بنا ان نختم هذه المقالة بكلمة كتبها الاستاذ فابجو مدرس علم التشريح بجامعة ليمبون للعلامة كاميل فلاماريون في ١٥ مايو سنة ١٩١٦ ونشرتها مجلة التاريخ السنوي للعلوم النفسية في عدد الصادر في سبتمبر الماضي جاء في نهايتها :

« انا لا احاول ان اعلل ما رأيته ولكن اكتفي بأن اقول كما قال السير وليم كروكس بانهُ حق صحيح

« وانا اشعر الآن بندم عظيم من جراء جحودي السابق . فاذا ادرك الانسان ما وصل اليهِ العلم في هذه السنين الاخيرة تعذر عليهِ ان ينكر شيئاً لاول وهلة . واننا لنفسي بسرعة تعاليم روجر باكون وندعي مع ذلك اننا حسيون نحب المذهب التجريبي »

محمد فريد وجدي